دمشق ...

للأستاذ علي الطنطاوي

« دمشق ! » ... وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود ؟ من يكتب عنها (وهي من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فانٍ ؟

دمشق : التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية، الخاشع أمام السماء خشوع الإيمان الصادق ... دمشق التي تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة ؛ وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس ، تخوض الليل إليها لتسبقها في طلوعها ؛ وهمس الزيتون الشيخ الذي شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى في حياته الطويلة وما سمع ، ويتلو على نفسه آيات حكمته ؛ وأغاني الحور الطروب الذي ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر ، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجبا وتيها ، خاطراً على أكتاف السواقي وعلى جنبات المسارب يتنازل النهد الحسان من نبات الشمس والرمان ، ويميل عليها ليقطف في الربيع وردة من خدها ، أو ثمرة من قلائد نحرها، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص ، والجوز ملك الغوطة جالس هنالك بجلاله وكبريائه ، ولا جلال ملك تحت تاجه ، وعاهل فوق عرشه

دمشق : التي تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) ، وهي خاشعة في محرابها الصخري تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم في بقاع الأرض كلها النصف الثاني ... وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجل العواطف التي عرفها قلب بشري فيذكّر كل إنسان بليالي حبه وساعات سعادته ، ثم يتصرم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ولا تطغى عليها سيول الذكريات ... الربوة : لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض ... الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى !

* * *

دمشق من أقدم مدن الأرض وأكبرها سناً وأرسخها في الحضارة قدماً . كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبي الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار ، وفيها تراكم تراث الأعصار ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها في سالف الدهر ، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي طبقات بعضها فوق بعض ... فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايتها ، وهي فيهم طبع وسجية ؛ ولقد تكون في غيرهم تطبعاً وتكلفاً ، فأي مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيخوخة كالذي جمع لدمشق ؟

وأصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التي بناها برقوق سنة ٨٧٧ للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك)(١) . ثم انظر وخبرني هل تعرف مدينة يجتمع منها في منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر ؟ أنظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شيء : ها هنا قلب المدينة وفيه الجامع الذي لا نظير له على وجه الأرض — لا أستثني ولا أبالغ — وقبة النسر تعلو هامته كتاج الملك ، لا بل كعمامة الشيخ ، وها هي ذي منارتها التي تعد مائة وسبعين منارة ، منها عشرون من أعظم منارات العالم الإسلامي ، قد افتن بناتها في هندستها ونقشها ، فاختلفت منها الأشكال واتفقت في العظمة والجلال ، لا كمآذن بغداد التي لا يختلف شيء منها عن شيء ، فإذا أبصرت منها واحدة ، فكأنما أبصرتها جميعاً ... يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التي تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نثرت فيها القرى التي تنيف على الأربعين عدا ، أكبرها (دوما) ذات الكروم ، (وداريا) التي تفاخر بعنبها كل أرض فيها عنب ، (وحرستا) بلد الزيتون ومنبت الإمام محمد صاحب أبي حنيفة ، (وجرمانا) وهي حديقة

---

(١) وهذا جواب الذي سألني عن تاريخ هذه القبة في عدد مضى من « الرسالة » ، أما القبة الثانية ، فقد بناها الأمير سيار الشجاعي وسميت باسمه

ورد ، وكفر سوسية ، وكفر بطنا ، والأشرفية ، وعهنايا ، والمآذن وهي مائلة خلال الأشجار ، ووراء الغوطة سهول المزة عن اليمين ، وسهل القابون عن الشمال ، وبطاح من الأمام ، وسهول تمتد إلى الأفق ، حيث تغيب الجبال البعيدة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وصفرة الطفل ، وسواد الليل ...

إنك تشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك ، فأين يا صديقي القارئ ترى مثل هذا ؟

* * *

وبردى ؟ لما قدم شاعر العرب عاصمة العرب ومر على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم ، قال له صاحبه مستقلاً بردى مستخفاً به : أهذا الذي ملأت الدنيا مدحاً له ؟ يظن صاحب شوق أن النهر بكثرة مائه وبعد ضفتيه . ما درى أن بردى هو الذي يجري في الوادي زاخراً متوثباً نشيطاً لا الذي يجري في (المرجة) منهافتاً كليلاً ، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز ، وهو الذي زرع بساتين الغوطة ، وهو الذي أنار دمشق بالكهرباء وسيّر فيها وفي غوطتها (الترام) ، وهو الذي لا تضيع قطرة منه واحدة على حين تمر دجلة على بغداد مرّ الكرام ، تقرأ عليها السلام ... ثم تحمل خيرها كله لتلقيه في البحر ، لا تمنح بغداد منه إلا ما تأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال . فمن رأى مثل بردى (في بره بارضه وكثرة خيراته) نهراً ؟ من ذاق أطيب من مائه ؟ من أبصر أجمل من واديه ؟ ...

* * *

لقد علم بردى أبناءه الولع بالخضرة والظلال ، وحبب إليهم أفانين الجمال ، فصارت النزهة (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تحيا أسرة إلا بها ، ولا تستغني عنها ، فهي لهم كالغذاء ، فهل يستغني عن الغذاء ؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشق في بيته لا يؤم (المهاجرين) ، حيث يجتمع على الشعاف والصخور وفي ظلال الآس الرجال والنساء على طهر وعفاف ، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر المسلمين ، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر وتجري خيول السبق في ساحة الجريد ؛ ثم إذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأمة ، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسة وعبادة ، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشق قاعد في دكانه أو قابع في بيته ؟ تعال انظر جماعتهم في قهوات (شارع بغداد) وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها . وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان) أجمل موضع في دمشق ، وأمامهم سماورات الشاي المسفر الرشيقة ، وفي كل حلقة مغنيها ، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء ، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها ؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني ، والحوذي وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان) يغني ، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني ، ونداء الباعة كله غناء وشعر ...

قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة تر عجباً لا شبيه له في البلاد ؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي ، وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود ، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لا تسمى شيئاً باسمه ؛ وإنما هي مجازات وكنايات ، عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الإفرنج فتساءل في كتاب له عما نظم الباعة هذه الأشعار الرقاق !

وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (ياغزل البنات ، ياما غزلوك في الليالي ، ياغزل البنات) ويضغط على (الليالي) ويمد (البنات) ، هل يستطيع قارىء أن يحرز ماذا يبيع هذا المنادي ! لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات ... وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقع في حسابك أنه يبيع (الخس) ، وأن (يامهون يا كريم) نداء بائع (الكعك) عند الصباح ، وأن من الباعة من ينادي بالحكم النوالي كهذا الذي ينادي : (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون)

أولا يشجيك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك . مابقي في الكرم غير الحطب ياعنب ، ودع والوداع لسنة ياعنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه ؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد ، ووضع (حلته)

وصفف رؤوس الشمندار الأحمر[1] ونادى فى أيام الشتاء (ردان! تعال صوبى ردان ... أنا بياع العسل) ألا يعجب إليك أكل العسل؛ واسمع العجائب فى نداء بائع اللفوف (اليختا): (يخنا واطبخ، والجارية بتفنخ، والبدع الباب، يقلّع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة): (بليلة بلبلوك، وسبع جوار خدموك، يا بليلة)؛ وبائع الزعرور: (أبيض أحمر يا زعبوب؛ تمر عنى يا زعبوب، البزر بن يا زعبوب)؛ واستمع إلى الشعر والخيال فى نداء بائع الجرادق (يلما رماك الهوا، وقلبي انكوى، يا ناعم). وبائع التين (دابل وعلى دباقك ياعيون الحبيب، ومن دباله يغشى لحاله)؛ وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تعجبك صورة الناطور وقد هرب من سواد الباذنجان؟

وهذا كله كان من ولع الشاميين بالغناء وإقبالهم عليه حتى انعقد إجماع فقهاء الذوق فيهم على أنه لا يصح اجتماع أو سمر إلا بالغناء؛ وإذا سها عنه ساه، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية، أو صدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التى لا يخالف أحد فى أن دمشق أبرع مدينة فى صنعها. وأسألوا محل (أسدية) فى القاهرة، ومطعم الفردوس فى بغداد، واذكرونى بالخير، فإن الدال على الخير كفاعله

والدمشقيون أكرم الناس، وأشدهم عطفاً على الغريب، وحباً له، فهم يؤثرونه على الأهل والولد؛ ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها، وكثرة أنهارها، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك فى الدور، حتى لا يخلو حىٌّ من نهر. فنهر (يزيد[2]) يسق الصالحية، و(تورا) يسق العقيبة وسوق ساروجا[3]، و(بانياس) يسق القيمرية، و(قنوات) يسق حىّ القنوات، وقد أخذت مياه عين الفيجة (وهى من أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق) فسيّرت مياهها فى بطون الجبال حتى أبلغت دمشق فأدخلت دورها، فشرب منها الناس أعذب ماء وأبرده. والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة، حتى أنه ليعدّ من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يوم مرة أو مرتين بالماء غسلاً وتمسح جدرانه وزجاجه، على رحب الدور الشامية، واتساع صحونها، وكثرة مرمرها ورخامها. وادخل المساجد تر بلاطها يلمع كالمرايا، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلها. وعرج على المطاعم تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك فى القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان، ونظافة تطمئن إليها نفس الموَسوس[1]. أما ألوان الطعام فى الشام فلا يضاهيها شيء فى غيرها، وما أكل الغريب فى دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابه وفضله على طعام بلده، وما استطاب الشامى فى غير بلده طعاماً قط. ومن خير مطاعم مصر والعراق؛ وألذها طعاماً وأحسنها نظاماً، ما كان صاحبه شامياً أو كان على منهب أهل الشام. ثم إن خدم المطاعم والقاعين عليها طيّبون أذكياء، وهم يدركون باللمحة السريعة، ويفهمون بالإشارة الخفية.

ودمشق أرخص بلاد الله وفيها النعيم المقيم ولا تخلو من ثمر قط لا فى الصيف ولا فى الشتاء. أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر؛ وفيها من العنب ما يزيد على خمسين نوعاً، ومن المشمش تسعة أنواع، ومن التين قريب من ذلك، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامى والجوز واللوز ما لا يوجد مثله فى غيرها

والدمشقيون أهل براعة فى الصناعة وعندهم من المعامل الكبيرة معمل للاسمنت عظيم (فى دمّر ظاهر دمشق) ومعمل للأمقار (الكونسروه) لا نظير لما يصنعه. ومعمل للدباغة كبير، ومعمل للجوخ، ومعامل كثيرة لا تحصى للمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والجوارب (والكرافات)، ومعمل للزجاج، ومعامل صنعت أكثر أنواع الأدوية وحكم الأطباء بجودة ما تصنعه، ومعامل لأنواع الشكاكر والمربيات (والشوكولاته). وفى دمشق مدرستان للعلم الديني فيهما

(١) وما رأيت فى العراق أنهم يأكلون الشمندر: الفت المسلوق ويدعونه الشلغم

(٢) نسبه إلى يزيد بن معاوية

(٣) نسبه إلى ساروجا من أمراء المماليك

(١) بصيغة الفاعل — كذا يضبطها الفقهاء — أى يوسوس لنفسه